هجرة الريف

الى المدن[1]

لسعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا

ايها السادة : نفتتح اليوم مؤتمر الاصلاح الاجتماعي بشكركم لتفضلكم بمشاركتنا فيه. وهذه المشاركة خير دليل لدينا على تعطش الأمة لهذا الاصلاح وحرصها على النهوض به لتسمو الى المكانة الانسانية الرفيعة اللائقة بهذا الوطن وبماضيه المجيد في تاريخ الحضارة . وهي كذلك خير دليل على ايماننا جميعاً بأن كل اصلاح يجب ليؤتي ثمرته ان يدرس دراسة دقيقة من مختلف نواحيه ، وان تقدر الآثار التي تترتب عليه ، وان يتقى ما قد يكون لهذه الآثار مع الزمن من رد فعل يجب الاحتياط له . فكل اصلاح تنشأ عنهُ حاجات جديدة ، وتترتب عليه نتائج أكثرها صالح لا خوف منهُ ، وبعضها قد يجر وراءه عواقب ان لم يسبق المصلح على اتقائها منذ اليوم الاول ، ولم ينظر لذلك خلال المستقبل الى عشرات السنين التي تعقب هذا الاصلاح ، نشأت عنها متاعب ومصاعب قد لا يكون علاجها دون القيام بالاصلاح عسراً ومشقة

ولذلك حرصت رابطة الاصلاح الاجتماعي حين دعت الى هذا المؤتمر على تحديد الموضوعات التي يتناولها ، مع علمها بأن شؤون حياتنا الاجتماعية جميعها بحاجة الى النظر فيها والى حسن توجيهها لتتفق مع آمالنا الانسانية العليا ، ولتندمج في قوميتنا الذاهبة مع التاريخ الى أبعد عصور الماضي ، والتي لا سبيل الى القضاء عليها واحلال قومية أخرى محلها في المستقبل

وقد اطلعتم ، أيها السادة : على الموضوعات التي يتناولها المؤتمر في بطاقات الدعوة التي تشرفت الرابطة بارسالها اليكم ، وفيها تكرمت الصحف بنشره عن الرابطة ومؤتمرها . وأرجو ان تكون هذه الموضوعات قد أثارت عنايتكم ، كما أرجو أن تصل بمعاونتكم الى ابداء الآراء التي توجه الرأي العام وتوجه الحكومة فيها الى ما يحقق الغرض الذي ننشده

أيها السادة : هذا اليوم الاول من أيام المؤتمر هو يوم الريف . الريف المصري الحبيب الذي نحبه ونقدسه لانهُ منبتنا جميعاً ومنبت آباءنا وأجدادنا كما انهُ منبت حضارات أطلت العالم زمناً فتعبى العالم ولا يزال يتغنى بآثارها . وقد رأينا ان نبدأ هذا اليوم بكلمة عن ثمرة هذا

(١) ألقيت في يوم الريف بمؤتمر رابطة الاصلاح الاجتماعي وسعادته رئيسها

الريف الجميل الى المدن وعن أسبابها وعلاجها . فكلنا متفقون على أن هذه الهجرة قد أضرت بلادنا كما أضرت غير مصر من بلاد العالم. فلنتوجه بمجهودنا الى منع هذا الضرر ولنعمل لنعود أهل الريف الى الريف، نعيد الى وطننا خدمة جليلة ونرد الى ريفنا جمالاً ونضرة وخصباً ما أبهاها وما أكثر ما أضاعت الهجرة الى المدن منها

قل من بلاد العالم ما تنفرد زيادة السكان فيه بالنسبة التي تنفرد بها في مصر . فقد كان عدد سكانها في سنة ١٩١٧ — ١٢٧١٨٢٥٥ نسمة فأصبح في سنة ١٩٣٧ — اي بعد عشرين سنة — ١٥٩١١٥٢٥ نسمة . اي انهُ زاد في هذه الفترة الوجيزة بنسبة خمس وعشرين في المائة. وقد كانت الزيادة مطردة في المدن وفي الارياف جميعاً . لكن اسبابها في المدن كانت اخص من اسبابها في الارياف بصورة محسوسة . فقد زادت في المدن من ١٨٨٢٥٨١ نسمة الى ٢٩٤٢٦٩٥ نسمة ، أي بنسبة ٥٦ في المائة . اما في الارياف فزادت من ١٠٨٣٥١٦٦ نسمة الى ١٢٩٦٨٨٣٠ نسمة ، اي بنسبة ١٩ في المائة . ولقد كانت القاهرة اكثر مدن مصر ازدياداً في عدد السكان . كانت في سنة ١٩١٧ تعد ٧٩٠٩٢٩ نسمة فزادت في سنة ١٩٣٧ الى ١٣١٢١٠٥ نسمة ، اي بنسبة ٦٦ في المائة . هذه الفوارق الكبيرة في نسبة الزيادة ما بين ١٩ في المائة للارياف الى ٥٦ في المائة لمجموع المدن و٦٦ في المائة للقاهرة تستوقف النظر وتشهد بأن هجرة الريف إلى المدن مشكلة اجتماعية جديرة بأن نصل من بحثها الى علاج ناجع لها

ايها السادة : يجب عليَّ قبل ان أفكر في العلاج ان أبحث اسباب هذه الهجرة . ومن الحق عليَّ ان اذكر ان جانباً من هذه الهجرة طبيعي لم يكن منهُ بد ، بل هو قد كان ضرورة لازمة لاصلاح استبداد ارتقاد البلاد . فالصناعة في مصر قد تقدمت في العشرين السنة الاخيرة تقدماً محسوساً . وقد نشأت اكثر الصناعات في المدن فاقتضى ذلك انتقال عدد كبير من أهل الريف الذين اشتغلوا بهذه الصناعات الى العواصم . ونظرة في الاحصاء تدل على ذلك دلالة واضحة . صحيح ان صناعات كبيرة قد نشأت في غير العواصم فضاعفت سكان البلاد الريفية التي نشأت فيها . فصناعة الغزل والنسيج قد ضاعفت سكان المحلة الكبرى وغيرها من الجهات التي استخدمت فيها . وصناعة السكر قد ضاعفت سكان القرى التي يصنع السكر فيها ، وكلها في الريف . لكن المدن والعواصم قد فازت من حيث هجرة اليد العاملة من الزراعة الى الصناعة بنصيب الاسد وهذه الهجرة ضرورة قضى بها تطور اصلاحي لم يكن منهُ بد . يضاف الى نشوء الصناعات انتشار التعليم ومعاهده ، وما أدى ذلك اليه من ازدياد عدد السكان في المراكز التي انشئت فيها هذه المعاهد. وقد فازت المدن من ذلك بحظ عظيم . ولو اننا قابلنا بين عدد المعاهد والملتحقين بها في سنة ١٩١٧ وعددها وعدد هؤلاء الملتحقين بها في سنة ١٩٣٧ لتبينا ان حظاً ، قد لا يكون عظيماً ، من هجرة

الريف الى المدن قد نشأ عن هذا الاصلاح في التعليم اصلاحاً لم يكن منهُ بد

لكنا لا نستطيع ان نرد سبب الهجرة كلها الى هذه العوامل الطبيعية التي قضى بها التطور الاقتصادي والاجتماعي في مصر . بل لعلَّ هذه الهجرة الطبيعية لا ترتفع الى اكثر من عشرة في المائة بالنسبة الى عدد زيادة السكان في المدن . فاذا قدرنا ان هناك زيادة طبيعية اخرى سببها تزايد النسل خلال هذه السنوات العشرين تقدر بعشرين في المائة — وهذا تقدير قد لا يخلو من المبالغة — تبينا ان خمسة وعشرين في المائة من زيادة عدد السكان في المدن ترجع الى اسباب لا علاقة لها بالزيادة الطبيعية في التناسل . وهذه النسبة ترتفع بالزيادة الى ما يزيد على نصف المليون وهي الزيادة التي سببت مشكلة الهجرة من الريف الى المدن فما اسبابها، وما علاجها

* * *

ايها السادة : ليس من اليسير أن استقصي اسباب مشكلة اجتماعية كهذه المشكلة في بحث وجيز كالذي اعرضه اليوم عليكم . فحسبي أن أشير الى أهم هذه الاسباب . وأهمها في رأيي قسوة الحياة في الريف واعتقاد كثيرين ان حبل العيش في المدن اكثر يسراً ورخاء . قد يكون هذا الاعتقاد غير صحيح . ولا ادل على فساده مما تسمعونهُ من الحديث عن العطلة بين المتعلمين وغير المتعلمين . فهذه العطلة لا علاقة لها بالريف البتة ، وانما علاقتها بالمدن . لكن الذين يتيسر لهم العمل بالمدن يجدون الحياة اكثر رخاء . فاذا زارهم أهلهم او زاروا اهلهم تمنى كثيرون أن يكونوا مثلهم . فاذا آنس احدهم في نفسه انهُ يستطيع ان يجد الى عيش المدينة الوسيلة عبر الريف ولم يقم به

هذا هو السبب العام . وهذا طبيعي في الانسان . فكل واحدنا مدفوع بفطرته الى التماس احسن انواع الحياة ، بأقل مجهود ممكن . وحياة الفلاح ليست احسن انواع الحياة ، بل لعلها أسوؤها . ومجهود الفلاح ليس اقل مجهود ، بل لعله اشقه . فاذا اضيف الى ذلك ان إنتاج الفلاح في الحال الحاضرة قليل ضئيل اتضح لنا السبب الاساسي لهجر الريف

ما هي العوامل التي أدت الى هذا السبب العام ؟ لماذا فقد الريف ما ألف من دل من رخاء ؟ ولماذا اصبحت الحياة فيه قاسية ومرغوباً لذلك عنها ؟

هذه العوامل كثيرة في مقدمتها هجرة الملاك من الريف الى المدن . هؤلاء الملاك الذين كانوا في الماضي ، وكان آباؤهم من قبلهم ، لا يعدون بالعناية بأرضهم شيئاً ، لانهم كانوا يجدون في هذه العناية السعادة والجاه والرخاء ، قد وجدوا في رخرف المدن ما اغراهم بالانتقال اليها ، ولا سيما بعد اذ خيل اليهم أنهم يستطيعون ان يستخلصوا ما ينقص من غلات أرضهم لا قصرانهم عنها بزيادة مساحة هذه الارض مما يشترونه بالمدن . او بما يستأجرونه ويؤجرونهم لغيرهم من املاك

ذوي الاملاك الواسعة من الملاك المقيمين انفسهم بالمدن . وقد رأى هؤلاء الاعيان من اهل الريف اخيراً ما جرَّ ذلك عليهم من ضرر . وهم يتمنون اليوم لو يستطيعون العودة الى بلادهم لكنهم ألفوا حياة المدن فلم يصبح في مقدورهم ان يفركوها . كما انهم اصبحوا مشتبكين مع البنوك والدائنين ، مضطرين بحكم هذا الاشتباك الى ان يقضوا في المدن وقتاً طويلاً يحول بينهم وبين العود الى الريف

ومن هذه العوامل كذلك ان الاصلاح يسير في الريف بخطى ابطأ كثيراً من خطى سيره في المدن ولذلك يجد الناس من متعة العيش في المدن مالا يجدونهُ في الريف . ولو ان الحكومة المصرية في وزاراتها المتعاقبة أعارت الريف عناية تعدل عنايتها بالمدن لخفف ذلك من مشكلة الهجرة . انا اعلم ان ذلك الامر غير يسير ، لأنهُ يقتضي جهداً ضخماً ونفقات طائلة . يقتضي ملايين كثيرة جداً لكني اعتقد مع ذلك انهُ جوهري في حياة البلاد ، جوهري في تقدمها الاقتصادي وانهُ لذلك مشروع ترد فائدة كبيرة على رأس المال الذي ينفق فيه

* * *

ولا تظنوا ايها السادة اني ابالغ حين اذكر ان السير في الاصلاح يقتضي ملايين كثيرة جداً. وحسبي ان اذكر ان هذا الاصلاح يتناول انشاء الطرق التي تقرب البلاد بعضها من بعض ، وتقربها من المدن ، وانهُ يقتضي اصلاحاً صحيًّا واسع النطاق ، واصلاحاً تعليميًّا واسع النطاق كذلك ، لتفدوا هذه الملايين . هذا الى ما يجب من تنظيم القرى تنظيماً جديداً يتفق وهذه النهضة العمرانية التي تجتازها البلاد . مع ذلك اكرر ان ما يتم في الريف من الاصلاح يرد من الثمرات ما يربي على اية فائدة تستوفى عن رأس المال الذي ينفق في هذه الاغراض

واذا وجب انشاء الطرق ووجب الاصلاح الصحي والاصلاح التعليمي لرفع مستوى المعيشة في القرية فما يجب الى الناس القيام بها ، والعود اليها فان زيادة الانتاج الزراعي في مقدمة ما يجب العناية به لمنع هجرة الريف الى المدن . لقد قلت ان اهم اسباب هجرة الريف قسوة الحياة فيه واعتقد كثيرون ان سبل العيش في المدن اكثر يسراً ورخاء . هذا اعتقاد سائد اليوم في الاوساط جميعاً . سائد في المدن وفي الريف على السواء . وبين الناس من لا يذكر ان ايراد الاراضي الزراعية لا يبلغ اكثر من خمسة في المائة ، على حين يبلغ ايراد العمارات بالمدن ثمانية في المائة او اكثر ، وتبلغ الصناعة او التجارة اضعاف ذلك . مادام هذا الاعتقاد سائداً فستكون هجرة الريف نتيجة محتومة له . وستقاسي البلاد مع الوقت من نتائج هذه الهجرة اضعاف ما تقاسي اليوم . فاذا اردنا منع تيار الهجرة وجب ان يؤمن الناس بأن الانتاج الزراعي يوازي غيره من صور الانتاج . بذلك يصبح توزيع السكان رهناً بالكفايات في الاعمال

المختلفة ويصح التفوق في الزراعة كالتفوق في الصناعة او في غيرها من اسباب السعي في الحياة جدير أيضاً بان يثمر ثمرة توازي ثمرة العمل في غير الزراعة من اسباب السعي

* * *

ايها السادة : هذه عبارات وجيزة في ما اعتقده أهم الاسباب لهجرة الريف الى المدن وأنجع الوسائل لمعالجة هذه الاسباب . وليس يتسع المقام للتفصيل ، ولا لتناول سواها من اسباب الهجرة . على انني أحسبكم قد رأيتم في هذه الالمامات السريعة مبلغ ما تتصل هجرة الريف بالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة في مصر . فهي تتصل بمشكلة العطلة وتتصل بمشكلة الحال الصحية وما يترتب على اصلاحها من زيادة المقدرة على الانتاج ، وتتصل بمشكلة التعليم وسياسته ، وتتصل بالحياة الصناعية الناشئة في البلاد ، وتتصل بالثروة القومية في صميمها . وهذا الاتصال يشهد بما لهذه المشكلة الاجتماعية من شأن عظيم ، كما يدل على ان معالجتها تتناول معالجة كثير من المسائل التي تستجلب العلاج في هذه البلاد

واذا كان لهذا الاتصال بين هجرة الريف وألوان الاصلاح المختلفة دلالة اومغزى فدلالته واضحة على ان الاصلاح في البلاد يجب ان توضع له سياسة عامة مدروسة مبحوثة ، ويجب ان لا يسود فيه الارتجال ، ويجب ان ينظر فيه الى المستقبل بدقة تزيد على النظر الى الحاضر . فالاصلاح أيها السادة كالغراس . الشجرة التي تغرسها اليوم لا تثمر غداً ، بل تثمر بعد أشهر ، او بعد سنين . وكما يجب على من يغرس الشجرة ان يعرف منذ اللحظة الاولى هل هي شجرة مثمرة او من أشجار الاخشاب ، وكما يجب ان يعرف مبلغ ما تستخرف من قوة الارض ليعالجها بنوع غذائه من السماد وان يقدر وسائل تعهدها في اثناء نموها ، كذلك يجب على من ينهض بالاصلاح ان يعرف مداه وان يقدر نتائجه وان يكون ملمًّا بأسباب الشر عليه وتعهده

وإني ليسرني إذ أختم هذه الكلمة ان أدع مكاني لزملائي المحترمين الذين سيتناولون بعض المشكلات الخاصة بحماية الريف ، كاصلاح القرية ، والهجرة الزراعية ، وعلاقة المالك والمستأجر ، وأثر المرأة في حياة الريف ، آملاً ان توفق من بعد الى سماع الآراء المختلفة في هذه الشؤون ، وان نضع بعد بحث هذه الأمور جميعاً قرارات تلخص آراءنا وتكون درساً في المستقبل لمن يرسمون سياسة البلاد العامة ومن يتولون أمورها ، كما تكون هادياً يزري النهام في توجيهه الى المطالبة بالاصلاح والعمل عليه

هدانا الله جميعاً سواء السبيل